الشكايات الأربع (٤)

كثرت الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – واتسعت رقعة الخلافة الإسلامية وامتدت . ففي عهده هُزم الروم في معركة اليرموك ، وهُزم الفرس في معركة القادسية ، وأصبحت جميع مدن الشام والعراق تحت سيطرة وإدارة الخلافة الإسلامية في المدينة المنورة . لذا فهذه المدن جميعاً تحتاج من عمر إلى أن يوكل عليها رجالاً يستطعيون حكمها وإدارتها والقيام بمصالح الناس وشؤونهم . إنَّ اختيار الولاة والنواب ومراقبة أدائهم هي من أهم مهام الخليفة ومسئولياته .. كيف لا وهم يمثلونه ويسوسون الناس بقوة سلطانه وحكمه .

بحث أمير المؤمنين عمر عن والٍ كفء يكون والياً على مدينة حمص (إحدى أكبر مدن الشام الواقعة بين دمشق وحلب) . بحث عمر عن ضالته تلك في المدينة المنورة ، فالمدينة فيها صحابة أكْفاء قادرون على تحمل مثل هذه المسئولية . لكن كانت هناك مشكلة في البحث والاختيار من بين هؤلاء الصحابة الأجلاء ! المشكلة أن المنصب لمثل هؤلاء ليس تشريفاً ووجاهةً يتزينون به أمام الناس ، بل هو أمانة وتكليف وحساب أمام الله تعالى قبل

---

(٤) المصدر : كتاب صور من حياة الصحابة لعبدالرحمن رأفت الباشا .. بتصرف .

الخليفة و الأمة . يكفي الرجل عيوبه وزلاته وعثراته حتى يقبل أن ينشغل بمسئوليات الناس ومصالحهم .. فلعل تقصيره بهذه المسؤوليات والمصالح هو ما يوجب تعذيبه بنار الله يوم القيامة . أليس أنت القائل يا عمر : لو عثرت بغلة في العراق لخشيت أن يسألني الله عنها لِمَ لَمْ تسوِ لها الطريق يا عمر . فها أنت خائف من هذه المسؤوليات يا عمر ، فلماذا لا نخاف نحن ؟! هكذا كانوا يفكرون رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين .

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها مغالباً ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها حتى إذا مات خلاها وما فيها

لكن عمر أكمل رحلة البحث .. فبعد فترة من التدقيق واعتذار نفر من الصحابة عن تولي هذا المنصب ، وجد ما ينشده . سعيد بن عامر الجمحي هو من يأخذ الولاية بحقها ، فهو القوي الأمين ، وهو من الصحابة الذين ربّاهم النبي [على التقوى والرحمة والعدل . فقال عمر لسعيد : أريدك أن تكون أميراً على حمص . فقال سعيد كما قال بعض الصحابة لعمر من قبله : لا يا أمير المؤمنين ، لا تفتنّي في ديني . وعندها غضب عمر لكثرة اعتذار إخوانه فقال : تتخذوني خليفةً عليكم وتضعون هذا الأمر في

عنقي ، ثم أطلبكم للإمارة فتتخلون عني ، والله لا أدعك ، أقسـم عليك يا سـعيد أن تكون والياً على حمص . فيُرغَم سعيد بن عامر الجمحي بحلف عمر إرغاماً على هذا المنصب ، فيغادر المدينة المنورة هو وزوجته بعد أن ودَّع أصحابه وأحبابه إلى حمص .

وتمـر الأيـام والأشهـر .. فإذا بعمـر بن الخطاب يُبصر تجاراً من مدينة حمـص قد زاروا المدينة المنورة ، فيسـتوقفهم عمر ويقـول : كيف حال أهل حمص ؟ فقالوا : بخير والحمدلله . فيقول : وكيف حال أميرهـا سعيد بن عامـر ؟ فيقولون : هو نعم الأمير يا أميـر المؤمنين . فقال عمر : هاكم هذه الورقة اكتبوا لي فيها قائمة بأسماء الفقراء والمساكين في حمص حتى أسُدَّ حاجتهم .

أخذ التجار الورقة وبدأوا يسـطرون عليها أسـماء الفقراء والمساكين ، وإذا بأول اسم يكتبه التجار في الورقة هو سعيد بن عامر الجمحي ! فيقرأ عمـر الورقـة فيقـول : من سعيـد بن عامـر هذا ؟! قالوا : أميرنا الجمحي . فقـال عمـر : أميركم فقير .. أحقاً ما تقولـون ؟!! قالوا : نعم .. والله إنَّه لتمر عليه الأيام الطوال ولايوقد في بيته نار . فبكى عمر بكاءً شديداً حتى

بلَّت دموعه لحيته ، ثم عمد إلى ألف دينار من بيت مال المسلمين فجعلها في صرة ، وقال لوفد التجار : اقرؤوا على سعيد السلام وقولوا له : بعث أمير المؤمنين إليك بهذا المال لتستعين به على قضاء حاجتك . ودَّع عمر الوفد ، وانصرف وفد التجار بعد يومين إلى حمص .

وصل التجار إلى حمص .. فطرقوا باب أميرهم سعيد بن عامر ، ودفعوا إليه بصرة المال . فسألهم مستنكراً : ما هذا ؟! فقالوا : معونة .. ألف دينار من أمير المؤمنين لك . فأخذ سعيد الصرة منهم ، وأدخلها بيته وهو يُبعدها عن جسمه وثيابه .. يمسكها من طرف كأنما يمسك خرقة نجسة وهو يردد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، لا حول ولا قوة إلا بالله .. يردد هذه الكلمات وكأنما نزلت عليه نازلة أو حلَّ به بلاء .

هبت إليه زوجته مذعورة ، وقالت : ماشأنك ياسعيد ؟! أمات أمير المؤمنين ؟ ! قال : لا .. بل الأمر أعظم من ذلك . قالت : أهزم جيش المسلمين ؟! قال : بل أعظم من ذلك . قالت : وما ذاك .. لقد أفزعتني ؟! فقال سعيد : دخلت علي الدنيا لتفسد آخرتي ، وحلَّت الفتنة في بيتي ..

لقد جاءتني هذه الدنانير . قالت : تخلص منها .. قالتها وهي لا تدري من أمر الدنانير شيئاً ، وأنها أعطية من الخليفة عمر إلى زوجها سعيد . فقال لها : أتساعديني على ذلك ؟ قالت : نعم فدتك نفسي .

أخذ سـعيد وزوجته الدنانير فجعلاها في صرر صغيرة ، يقسـمان المال فيهـا على المحتاجين والفقراء من أبناء حمص . فما بزغ فجر اليوم التالي إلا والمـال كله قـد نفد ، ولم يبق من الألف حتى درهـم واحد . فحمد الله سعيدٌ وقال : الحمد لله أن الفتنة قد زالت .

ثـم تمضـي السـنـون سـريعـة .. وتكـون زيـارة عمـر بـن الخطـاب – رضي الله عنه – للشام ، عندما اشترط نصارى بيت المقدس على جيش أبي عبيـدة عامر بن الجـراح – رضي الله عنه – وهو يحاصر مدينتهم ، أن يأتي خليفـة المسلميـن إليهـم إذا ما أراد الجيش الإسلامي دخول المدينة صلحاً . فيصل عمر إلى بيت المقدس ويتسـلم مفتاحه ويصلي فيه والمسـلمون . ووجد عمر هذه الزيارة فرصة له يتفقد فيها ديار الشـام القريبة من بيت المقـدس ، والوقـوف على أحوال رعيته وأمرائه وأعوانـه .. فعزم على زيارة حمص .

فلما أشـــرف عمر على مدينة حمص ، رأى جمعاً غفيراً من أهل حمص وقد تجمهروا خارج المدينة عند بابها الكبير ، فظن عمر أن هذا من حســن الاستقبال والاحتفاء بقدومه . لكنه لما اقترب من وجوه القوم .. رأى وجوهاً عابســة وعيوناً غاضبة وأنفســاً مضطربة شــاكية .. ما الخبر ؟! ما الذي أغضب هؤلاء ؟! فلما ســألهم عمر عن خبرهم ، قالوا : يا أمير المؤمنين إنَّ لنا على سعيد بن عامر الجمحي أربع شكايات ، كل واحدة منها أعظم من الأخرى .

صُعق عمر وذُهل مما يرى ويســمع ، وكأنه يقول لنفســه : أنا المســئول الأول أمــام الله عن هذا الوالي ، لماذا غفلت عنه كل هذا الزمن ؟ لقد خيب ظني وما أصابت فراســتي فيه ، كيف يجرؤ على التقصير في إدارة مدينته والســعي في مصالح أهلهــا ؟! لقد قال النبي [« ما مــن والٍ يلي رعية من المســلمين فيمــوت وهو غاش لهــم ، إلا حــرَّم الله عليه الجنــة »[٥] .. لقد غششــتهم بهذا الوالي . وبعد لحظات الذهول هذه .. تذكر عمر أن المشــكو عليه هو سعيد بن عامر الجمحي الذي طالما وثق به وبدينه وأمانته ، فدعا الله ألا يخيب ظنه فيه .

---

(٥) رواه البخاري .

وهنا طلب عمر إلى سعيد الحضور الفوري أمامه وأمام الناس ليرد على هذه الشـكايات الأربع . فالعدل الإسلامي لا يحابي أحداً ، لا يحابي أميراً ولا وزيراً ولا غنياً ولا وجيهاً ولا صديقاً ولا قريباً . فالكل أمام قضائه سواء حتـى يُقتص من الظالم ويُرد للمظلوم حقه . لقـد أعلنها النبي [مدوية عندما أراد حِبه وابن حبيبه أسـامة بن زيد الشفاعة في إيقاف حد قطع يد المخزومية التي سـرقت ، فقال عليه السلام : « أتشفع في حدٍ من حدود الله تعالـى ؟ ثم قام فاخْتَطَبَ ، ثم قال : إنما أهْلَكَ الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » [٦] . لقد كانت كل تلك المعاني واضحة عند الفاروق ، فلم يحابِ سعيداً لصحبته أو صداقته أو سـبق إسلامه ، بل ناداه أمام خصومه ليدافع عن نفسه ويرد على الشكايات الأربع . فأشقى الولاة من شقيت به رعيته .. هكذا يقول عمر .

فقال عمر لأهل حمص : هاتوا الشكوى الأولى . فقالوا : يا أمير المؤمنين .. إنَّ سـعيد بن عامر الجمحـي لا يخرج علينا في الليـل ، فبعد أن يصلي العشاء فينا ، يقوم ولا يكلمنا ولا يجيب أحداً فينا ، ولا نراه إلا في فجر الغد . فقال عمر بصوت غاضب : ما تقول في ذلك يا سعيد ؟ هل شغلتك الزوجة

---

(٦) متفق عليه .

obeikandi.com

والأطفال عن مصالح الناس ؟ هل شغلتك مجالس الأحباب والأصحاب في المساء عن تفقد أحوال رعيتك ؟ ما الذي يمنعك من الخروج لهم ليلاً ؟! فقال سعيد : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وماذا تريدون مني بالليل وليس بكم حاجة إليَّ وليس لي حاجة إلى مجالسكم ، سامحكم الله ، والله ما أسأت إلى أحد منكم ، وإني بكم لرفيق وعلى خيركم لحريص . يا أمير المؤمنين .. إني وددت أن يكون هذا سراً بيني وبين الله ، أما والحال ما ترى ، فأقول : أما النهار فجعلته لهم وأما الليل فجعلته لله .

وكأن سعيد يقول في نفسه : إنما أنا في هذه الدنيا كعابر سبيل أو مستظل تحت شجرة ، نام تحتها ثم مشى عنها وتركها . فالفَطِن مَن عمل لدار خالدة عامرة لا شقاء فيها ، وليس لدار فانية خاربة لا تدوم حالها وأنسها . قال أبو هريرة رضي الله عنه : أن النبي [مر بسخلةٍ جرباء قد أخرجها أهلها ، قال : ترون هذه هينة على أهلها ؟ قالوا : نعم . قال : والله للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها [٧] . يكفي يا عمر عملي مع الناس النهار كله ، لن أنسى حظي من الآخرة ، ولن أنسى أنني خلقت عبداً لأعبد الله وأشكره ، ولن أنسى أنه جواد كريم تتابع فضله وخيره ووجب علينا دوام شكره وذكره . المهم أنَّ عمر سكت وقَبِل ورَضِيَ

---

(٧) رواه البخاري .

من سعيد رده الأول ، فانتقل مع القوم إلى الشكوى الثانية .

فقال عمر للناس : هاتوا الشكوى الثانية . فقالوا : يا أمير المؤمنين .. إنَّ سعيداً لا يخرج علينا من نهاره إلا متأخراً وعندما ترتفع الشمس كثيراً . فقال عمر بنبرة حادةً غاضبةً : ما تقول في ذلك يا سعيد ؟! فسكت سعيد قليلاً .. ثم قال : والله إني أكره أن أقول ذلك ، أما وإنه لا بدَّ منه ، فإنه يا أمير المؤمنين ليس لي في البيت خادم ، وزوجتي مريضة ضعيفة لا تقوى على العمل ، فأنا مَن يساعدها على العجين ، فأعجن لها العجين ، ثم أجلس حتى يختمر ، فأخبزه لها ونأكل منه ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم . فرضي عمر وسكت .. لكن بقي عليك شكايتان يا سعيد ، فلعلك تجيب عنهما بمثل ما أجبت عن أختيهما فأسلم وتسلم .. بهذا كان عمر يُحدِّث نفسه .

يلتفت عمر إلى أهل حمص ويقول : هاتوا الشكوى الثالثة . فقالوا : يا أمير المؤمنين إنه في يوم من الأسبوع لا يخرج علينا حتى يكون قريباً من أذان الظهر . فالتفت عمر إلى سعيد ، وقال بصوت أخفض حدةً من حاله الأولى : ما تقول في ذلك يا سعيد ؟ قال : يا أمير المؤمنين .. وسكت

هنيهة وتنهد تنهد الحزين الذي انكشفت أسراره مع ربه ، ثم قال : ليس لي يا أمير المؤمنين إلا هذا القميص الذي هو على جلدي الآن ، وفي هذا اليوم الذي يذكرون أخلعه وقت الصبح وأغسله وأنشره ، ثم إذا جفَّ لبسته وخرجت إليهم قبيل أذان الظهر .. أفي ذلك بأس يا أمير المؤمنين . فقال عمر : لا . تنفس عمر الصعداء بعد أن ذهب أكبر همه وكربه من هذه الردود المسكتة التي دلت على زهد واليه وصلاحه . لكن بقيت عليك يا سعيد آخر شكوى من القوم ، وأريد أن يكون جوابك عليها شافياً كافياً مسكتاً تزيل به آخر همي وغمي من شكايات أهل حمص .

التفت عمر إلى أهل حمص ثم قال : وما تشكون منه أيضاً ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، إنَّ سعيداً عندما يكون في مجلسنا ، تصيبه صرعة يرتعش لها جسمه ، ثم يغشى عليه ويغيب عن وعيه . وهنا قد يقول بعض الناس : ما هذه الشكوى الظالمة ؟ فهذا مرض لا دخل للإنسان فيه !! هذا صحيح ، لكنها عين السخط التي تبدي وتحصي المساويا بغض النظر إن كانت بإرادة الإنسان أو عدمها . لكن عمر هنا أراد أن يستوضح للناس ولنفسه من سعيد ، إن كانت هذه الصرعة والإغماءة بسبب مرض مزمن أو جديد قد يعيق سعيد عن الاستمرار في ولايته على حمص ، فيعفيه عمر

مــن منصبــه . أو لعل هذه الإغماءة - كما قد يظن الذي لا يعرف لسـعيد قدره وفضله - أنه بسـبب مشـروب أو نبات يسكر العقل ويصرعه . المهم أنَّ عمر كان في موقف القاضي ولا بدَّ من التوضيح يا سعيد .

لــذا التفت عمر إلى سـعيد ، وكلــه أمل في الله ورجــاء ألا يخيب ظنه بصاحبه وعامله على حمص سعيد بن عامر الجمحي ، فقال : ما تقول في هذه الصرعة يا سعيد ؟ فقال سعيد : يا أمير المؤمنين .. أنا من الذين رأوا مصرع خبيب بن عدي [٨] وأنا مشـرك ، فقد كنت واحداً من الآلاف الذين خرجو إلى منطقة التنعيم في ظاهرة مكة بدعوةٍ من زعماء قريش لنشهد مصرعه بعد أن ظفروا به غدراً . لقد رأيت خبيب بن عدي أسـيراً لقريش مكبلاً بالقيود تدفعه أكف النساء والصبيان والشبان دفعاً إلى ساحة الموت لينتقموا من محمدٍ في شـخصه ، ويثأروا لقتلاهم في (بدر) بقتله . فلما وصلت هذه الجموع الحاشـدة بأسيرها إلى المكان المعد لقتله ، وقفت أنظر إلــى خبيب وهو يُقدَّم إلى خشـبة الصلب ، وسـمعت صوته وهــو يقول : إن

(٨) خبيب بن عدي هو أحد الصحابة الذين شهدوا بدراً . بعثه النبي I مع سرية من عشرة نفر عيناً على أحوال المشركين (غزوة الرجيع) . فانطلقوا حتى إذا كانوا بمكان يسمى الهدَأة وهو مكان يسكنه حي من هذيل يقال لهم بنو لِحيان وكانوا مشركين ، عرف بنو لحيان بخبر خبيب ورفاقه فتبعوهم بقريب من مئة رام . فلجأ الصحابة العشرة إلى جبل ، فحاصرهم المشركون وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً ، فلم ينزل الصحابة ، فنكث المشركون عهدهم وقتلوا ثمانية وبقي خبيب و زيد . فأسروهما وباعوهما بمكة على كفار قريش ، واشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر (روى البخاري غزوة الرجيع هذه في صحيحه في كتاب المغازي وفي كتاب الجهاد والسير) .

شئتم أن تتركوني أركع ركعتين قبل مصرعي . ففعلوا وتركوه . فصلى ركعتين يا لحسنهما ويا لتمامهما ، ثم أقبل بعينه على زعماء القوم وقال : والله لولا أن تظنوا أني أطلت الصلاة جزعا من الموت لاستكثرت من الصلاة .

وبعد أن أدى خبيب الركعتين .. شهدت الناس وهم ينقضون عليه ، وقد أتى أحدهم بسيف وآخر بسكين وآخر برمح ، فمثلوا فيه وقطعوا من جسده القطعة تلو القطعة ، وهم يقولون له : أتحب أن يكون محمداً مكانك وأنت ناج ؟ فيقول والدماء تنزف منه : والله ما أحب أن أكون آمنا معافى في أهلي وولدي وأن محمداً يشاك بشوكة . فيلوح الناس بأيديهم في الفضاء ويتعالى صياحهم أن اقتلوه اقتلوه . ثم أبصرت خبيباً يرفع بصره إلى السماء من فوق خشبة الصلب ويقول : اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً .. ثم قال :

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلوٍ ممزَّعِ

ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ، وبه ما لم يستطع أحد إحصاءه من ضربات

obeikandl.com

السيوف وقطع السكاكين وطعنات الرماح . فكلما تذكرت دعاءه على قريش ، وتذكرت أنني من الذين رأوا مصرعه ولم ينصروه ، خشيت أن يصيبني شيئاً من دعائه أو تصعقني صاعقة أو تخر عليَّ صخرة من السماء ، وخشيت ألا يغفر الله لي .. فهذا الذي يغشـاني ويصرعني يا أمير المؤمنين . عند ذلك بكى عمر وانحدرت دموعه فرحاً وقال : الحمد لله الذي لم يخيب فراستي فيك ، فعانقه ودعا له وودعه .

وبعد أيام أرسـل عمر لسـعيد ألف دينار ثانية يستعين بها على حاجته . فلما رأتها زوجة سـعيد قالت لزوجهـا : الحمد لله الذي وهب لنا هذا المال ، اشـتر لنا منه مؤنة واسـتأجر لنا خادماً . فقال سعيد : وهل لك فيما هو خيـر من ذلك ؟ قالـت : وما ذاك ؟! قال : ندفعها إلى من يأتينا بها ونحن أحوج ما نكون إليها . قالت : ومن يكون ؟ قال : نقرضها الله قرضاً حسناً . قالت : نعم ، وجزيت خيراً . فما غادر سـعيد مجلسه ، حتى جعل الدنانير في صرر صغيرة وأرسـلها للفقراء والمساكين والأرامل والأيتام ، ولم يُبقِ له ولبيته منها شيئاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »

متفق عليه

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم مرتعه يفضي إلى الندمِ

تنام عينُك والمظلوم منتبهٌ يدعو عليك وعين الله لم تنمِ

obeikandl.com